(٣٥) صفات العالِم الرباني

(الإخلاص والتجرد لله سبحانه)

د. راغب:

تحدثنا سابقا عن أهم صفات العلماء الربانيين وعلاقتهم بمجتمعاتهم، وعن حركتهم مع الناس ومع بقية العلماء وتفاعلهم مع قضايا الأمة، واهتمامهم بالمشاكل الكثيرة والأزمات التي تمر بالأمة.

وذكرنا أمثلة كثيرة من التاريخ ومن الواقع، ومررنا بعدد كبير من الآلام وبعدد كبير من الآمال، محاولة منا لرسم صورة العالِم الرباني الذي يرضى عنه رب العالمين سبحانه وتعالى، ويكون مؤثرًا في حركة ونهضة الأمة الإسلامية التي وصفها ربنا سبحانه وتعالى بأنها: {خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، ولم تتبوأ في زماننا الآن المكانة التي أرادها ربنا عزَّوجلَّ لها، فأردنا بهذا البرنامج أن نعيد لأمتنا مكانتها.

العالِم الرباني صفاته كثيرة وعلاماته لا حصر لها، ونحتاج إلى مجلدات ومجلدات لنصف هذا الإنسان الذي هو أمة وقائد للأمة والمجتمع، لكن أعتقد أن من أهم صفات هذا العالِم هي صفة الإخلاص والتجرد لله عزَّوجلَّ وألا ينوي بعمله إلا أن يرضى عنه ربنا ويُدخله الجنة، فما رأيك في هذه القضية؟

د. صلاح:

الإمام البخاري ألمح فيه جانب تربوي عالي جدًا عند روايته للحديث، في كتابه العظيم (بدأ الوحي)، يستفتحه بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمَن كانتْ هجرتُه إلى دنيا يُصيبُها، أو إلى امرأةٍ ينكِحُها، فهجرتُه إلى ما هاجَرَ إليه».

الراوي: عمر بن الخطاب -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ١

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وكذلك فعلها الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين وفعله عدد كبير جدًا من العلماء يبدؤون بحديث الإخلاص.

بل وأدخل الإمام الشافعي هذا الحديث في أبواب الفقه كلها، فلا يخلو بابٌ من هذا الحديث، بل وهذه المسألة لها صلة بأصل وجود الإنسان في هذه الحياة ورسالة العالِم الرباني، بل إن رسالة العالِم الرباني هي أن يرضى عنه الله، والله لا يرضى أن يكون هناك شريك له في أي شيء.

بل والصورة الأخرى لهذه المسألة مفزعة وهي تجعل كل صاحب علم يشعر أنه في حالة اضطراب مستمرة في قلبه وكأن قلبه بين جناحي طائر، من حديث: «إن أول من تسعر بهم النار ثلاثة، منهم: الذي طلب العلم وقرأ القرآن لغير الله ليقال: هو عالم، وليقال له: قارئ»

المحدث: ابن باز

المصدر: مجموع فتاوى ابن باز - الصفحة أو الرقم: ٢/٣٠٧

خلاصة حكم المحدث: صحيح

وبالتالي هناك نوعين من العلماء، منهم المخلصين من العلماء العاملين الربانيين يرفعهم في أعلى عليين الله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة:١١]، ومنهم من ينزل إلى أسفل الدرجات ويدخل إلى جهنم قبل اليهود والنصارى والظالمين الذي انحرفوا عن طريق الله عزَّوجلَّ، وهذا لأنه أشرَكَ مع الله أحدًا غيره في العمل لله تبارك وتعالى.

عندما نرى صورة العالِم الذي تجرد الإخلاص والتعبد لله عزَّوجلَّ، فنجد علماء الصحابة ممكن كان لديهم العلم لكن عندما كانوا يُسألون فيتحرجون الفتوى فيحيلون السائلين إلى غيرهم من الصحابة وقال الإمام ابن القيم: (كثرة الفتوى من قلة العلم أو كثرته)

فهناك عالِم يُفتي بعلم، وعالِم آخر يُفتي حتى لا يقال عنه أنه لا يعلم فيُفتي بغير علم، وهذه خطيرة جدًا لأنه لا يبحث عن الحق وإنما يبحث عن وضعه النفسي والأدبي بين الناس، فتصبح نفسه أعزَّ عليه من الحق، وبهذا الحقيقة يفقد الكثير جدًا في الدنيا والآخرة.

فالإمام مالك عندما سُئِلَ في ٤٨ مسألة أجاب في ٣٢ منها بـ(لا أعلم)، حتى قال له الرجل الأندلسي: جئتك من بلاد بعيدة وتقول لا أعلم، فقال الإمام مالك: ومن قال لك أني أعلم كل شيء، ثم قال الإمام مالك: إذا ترك العالِم قولة لا أعلم فقد أصيبت مقاتله.

وفي المقابل كان أحدهم يُفتي في كل شيء ويقول ما لا يعلم والناس لا فكرة لديها فتأخذ كلامه على أنه صحيح، فاجتمع جماعة وأرادوا التأكد من كونه عالِم أو مُدَلِّس، فقالوا: إذًا كلٌ منا يختار حرف ونكوِّن كلمة، فخرجت كلمة (الخنفشار)، فذهبوا إليه وقالوا له: ما معنى كلمة الخنفشار في لغة العرب؟، ولأنه مُدَلِّس قال لهم: (الخنفشار هوما انعقد به الشيء، قالت العرب: لقد علقت مودتكم بقلبي كما عقد الحليب الخنفشار).

عندما نرى الإمام الشافعي رضي الله عنه لما بدأ طلابه يكتبون ويروون عنه، قال: وددت لو روي عني هذا العلم كله ولم يذكر فيه اسمي.

ويقول متجردًا للحق: والله ما ناظرت أحدًا إلا دعوت الله أن يجري الحق على قلبه ولسانه.

ونحن الآن نجد فتاوى من العلماء ليس لها وزن علمي ولا فقهي، وعندما تُذكِّرهم وتعطيهم الرؤيا الصحيحة الشرعية لكن لا يتخلى أبدًا عن رأيه، وأحد العلماء الذي أفتى في الربا فتاوى تخالف المجامع الفقهية كاملةً، قيل له تعال نتحاور لكنه رفض وأبى أن يرجع عن فتواه، وهذا من الكِبر الذي ينافي الإخلاص والتجرد لله تبارك وتعالى.

فصاحب العلم كلما ازداد علمًا ازداد ضعفًا في نفسه وشعور بالذلة على المؤمنين وشعور بالقلة، وكما كان يدعو أحد العلماء: (اللهم اجعلني عندك خير الناس وعند الناس من الناس وعند نفسي أقل الناس).

(خطوات للوصول إلى الإخلاص)

د. راغب:

نريد أن نرسم طريق يمشي فيه الناس ليصلوا إلى قمة الإخلاص، لأن وصفة الإخلاص هي صفة صعبة، لأن الكلام قد يكون سهل لكن تطبيقه في الحقيقة صعب، وقال سفيان الثوري: (ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي فإنها تنقلب عليّ كثيرًا)، وهومن هومن كبار التابعين.

دعنا نرسم خطوات بسيطة للناس ونقول لهم ماذا تفعل كي تكون مخلصًا.

د. صلاح:

أولا: لا بد من يحرر نيته قبل كل قراءة وكتابة أو درس علم وقبل كل عمل، وتكون خالصة لله تبارك وتعالى.

بعض الصحابة كان يذهب لزيارة المريض فيستوقف من معه، فيقول له: ماذا هنالك؟ فيقول: حتى أحرر نيتي لله عزَّ وجلَّ.

وهذا ليس خاصًا بالعلماء الشرعيين، بل كل من يتعلم في أي تخصص، في علم الرياضيات والفيزياء والقرآن الكريم والفقه والسيرة وما إلى ذلك.

طالما أنه يتعلم علمًا نافعًا، فهو يَخُط طريقه إلى الله سبحانه وتعالى ويتعلم العلم الذي أودعه الله سبحانه وتعالى إياه.

ثانيا: عندما يطلب الإنسان العلم عليه أن يكون عالِمًا خادمًا للأمة وحاملًا للرسالة، ولا يريد أن يكون حاملًا للألقاب، بل يريد أن يكون عالِمًا حتى يُرضي ربه سبحانه وتعالى ويبلغ رسالته ويحمل أمانته، إن الله تعالى يقول: {قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨].

ثالثا: قيام الليل:

فهو يُصفي النفس من أدران الرياء والسمعة لأنه كما في الحديث: «عليكُم بقيامِ اللَّيلِ ، فإنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحينَ قبلَكُم ، وقُربةٌ إلى اللهِ تعالى ومَنهاةٌ عن الإثمِ وتَكفيرٌ للسَّيِّئاتِ ، ومَطردةٌ للدَّاءِ عن الجسَدِ»

الراوي: بلال وأبو أمامة وأبو الدرداء وسلمان وجابر بن عبدالله

المحدث: الألباني -المصدر: صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٤٠٧٩

خلاصة حكم المحدث: صحيح

ودأب الصالحين هو التجرد والإخلاص، ويصنع في الإنسان مالا يصنعه غيره، وهذه العبادة بشكل خاص إن لم يتمرس عليها العالِم فقد تودّع منه وأصبح في عِداد الهلكى وهولا يدري، بالرغم من أنها نافلة إلا أن العالِم ليس إنسانًا عاديًا، فصناعة العالِم تحتاج أنه يطيل الوقت في الليل والعبادة بينه وبين الله سبحانه وتعالى يطيل قراءة القرآن ويطيل السجود بين يدي الله تبارك وتعالى.

العالِم الرباني والقائد الرباني عليه ان يكون كالجبل، الذي يكون ثلثي هيكله مختفي تحت الأرض وما يظهر للناس هو الثلث، فيظهر ثلث خيره للناس، وبقية الثلثان يكون فيما بينه وبين الله من أعمال البر وأعمال الخير والصدقات وما إلى ذلك، فهذه تجعل نسبة رسوخ الإيمان في القلب والتجرد لله سبحانه وتعالى كبيرة جدًا.

رابعا: أن الإنسان عندما يجد من هو أعلم منه يُقدِّمه ولا يتقدم عليه، وهذه من علامات الإخلاص، وشعوره أنه يستفيد من أخيه في الله.

د. راغب:

من الأمور التي هزتني بقوة هي أنه كلما ازدت تفكرًا في الله عزَّ وجلَّ كلما ازدت تقديرًا له وكلما ازدت إخلاصًا له سبحانه وتعالى حتى أن قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]

فذكَر هنا أن الإشراك يأتي عندما لا تَقدِر لله قدره سبحانه وتعالى، فإذا قَدَرت له قدره تستطيع أن تعبده دون أن يتدخل الشيطان في هذه العبادة، وهنا تصبح العبادة تمتلك كل حياتك دون تكلُّف لأنك تبعد إله قدير عظيم.

اليوم المهندس يضرب مثل يقول أن قطر الكرة الأرضية نقطة بالنسبة للشمس، والشمس قطرها ٧٠٠ ألف كيلومتر ثم اكتشفوا بعدها أن هناك نجم طول قطره حوالي ١٢ مليون كيلومتر، ثم اكتشفوا بعدها أن هناك نجم قطره ١٥٠ مليون كيلومتر، ثم اكتشفوا بعدها نجم يصل طول قطره إلى ٣٠٠ مليون كيلومتر!

نجم بهذا الحجم لتقطعه من أوله إلى آخره هذه المسافة تُقطع في آجال وأعمار طويلة جدًا، وهذا كله في السماء الدنيا.

أنا أريد من كل عالِم أو طالب علم يريد أن يكون عالِمًا ربانيًا ألا يعتقد أن وقته سيضيع إن أنفقه في غير القراءة، بل كما يقرأ في كتب العلم والشريعة وكتب الرياضيات والطب وغيرها، عليه أن يصرف من وقته وجهده لقراءة القرآن الكريم وخاصة لوكان في قيام الليل، ويصرف من عمره وقتًا للتفكر والتدبر في الكون.

وعماد الدين زنكي رحمه الله كان من كبار القادة المشغولين بقضايا في غاية الأهمية، منها قضايا داخلية طاحِنة وحروب مع الإمارات الصليبية وكان يواجه مشاكل أمة، إلا أنه كان يختلي بنفسه ويأخذ مركب في نهر دجلة لكي يتفكر في الكون وهذا الأمر كان يعطيه زادًا، فيُفكر فيمن يطيعه ويتعبده فتصغر في عينيه الصليبيون الذين كانوا يحاربونه وتصغر في عينيه الكيانات الفارغة التي كانت تحاربه وتصغر في عينه المهام والمشاكل الضخمة التي كانت أمامه، ويوجه نيته لله القدير الذي خلق هذا النهر وخلق هذه السماء وخلق هذا القمر والشمس وغيرهم.

فهذا الزاد نستطيع أن نغير به حركة القلب ونصل به إلى الإخلاص إن شاء الله رب العالمين.

د. صلاح:

عبادة التفكر من أكثر العبادات التي تُوصل قلب العبد بالله وتُعلمه الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

وخاصة العلماء، لا بد للعالِم من التفكر والتدبر لأن العالِم لا بد أن يكون عميق النظر وواسع الأثر، فلا بد أن يذوق حلاوة التفكر والتدبر وثم يشيع في الناس عبادة التفكر وعبادة التدبر.

د. راغب:

وبالتالي يصغر في عينه جميع المشاكل الدنيوية.

أبو الدرداء رضي الله عنه وأرضاه كان يقضي وقتًا طويلًا في التفكر، فكانوا يقولون له أتُعد العبادة من التفكر؟ فقال: هو العبادة.

والآيات في القرآن الكريم كثيرة، يقول الله: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ} [النساء: ٨٢]، و{أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: ٥٠].

فلفت النظر إلى ملكوت السماوات والأرض، والشمس والقمر والبحار والأنهار وإلى المخلوقات والدواب والأنعام، في القرآن الكريم ليس عشوائيًا، فالقرآن الكريم ليس كتاب علم الحيوان أو النبات، بل هو تربية للإنسان وعقله وقلبه.

فلفت النظر لكل هذه الأشياء لأنها في النهاية تصل بك للإخلاص التي تصل بك إلى يُفضي إلى عبادة صحيحة وتوجه سليم إلى الله عزَّ وجلَّ.

وهي تجربة عظيمة جدًا عندما يقول الأنسان أذكار الصباح والمساء على شاطئ النيل أوفي مكان يشاهد فيه السماء فهي ستختلف تمامًا عمَّن يقولها وهو في غرفة مغلقة.

ومن يعيش في القرى أو الأقاليم ويذهب إلى المزارع يرى الحقول الخضراء ويملئ عينيه من هذا الامتداد الأخضر وهذا الملكوت الواسع لرب العالمين سبحانه وتعالى، ومن يعيش أمام البحار ويرى البحر ويقرأ الأذكار أثناء غروب الشمس، فهذا مختلف كليّةً عمَّن يقول الأذكار ويذكر الله عزَّ وجلَّ في مكان منغلق.

وفي كل خير لكن نحن نهيب بإخواننا حتى نحول هذا إلى دراسة

عندما تقرأ كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان، شتان بين حالتك الإيمانية والنفسية والقلبية قبل القراءة وبعد القراءة، حتى عندما تقرأ كتب غربية تشرح الملك لله عزَّ وجلَّ وطبيعة النجوم والبحار والأسماك وطبيعة الخلق {وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: ٢١]،و{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣].

فيتبين لنا هذه الرؤيا عندما نتفكر في خلق الله عزَّ وجلَّ، وهذه مهمة تظل مهمة العلماء.

صفات العالِم الرباني صفات لا تنتهي، وأخلاقه من أهم السمات الّتي يجب أن يتّسم بها العالِم الرباني.